الصباح الإسلامية
08
العدد 1934 - السنة السابعة
الاربعاء 16 شوال 1435 - الموافق 13 أغسطس 2014
Wednesday 13 August 2014 - No.1934 - 7th Year

دروس من سورة النساء 2

الظروف الطارئة فرقت بين أبناء «النفس» الواحدة ومزقت وشائج الرحم

«يايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا»

إن هذه الحقائق القطرية البسيطة لهي حقائق كبيرة جدا، وعميقة جدا، وثقيلة جدا.. ولو ألقى «الناس» أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة في حياتهم وبنقلهم من الجاهلية - أو من الجاهليات المختلفة - إلى الإيمان والرشد والهدى، وإلى الحضارة الحقيقية اللائقة «بالناس» و«بالنفس» واللائقة بالخلق الذي ربه وخالقه هو الله.

إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالا فسيحا لتاملات شتى:

1 - انها ابتداء تذكر «الناس» بمصدرهم الذي صدروا عنه، وتردهم إلى خالقهم الذي أنشاهم في هذه الأرض.. هذه الحقيقة التي ينساها «الناس» فينسون كل شيء! ولا يستقيم لهم بعدها أمر!

إن الناس جاءوا إلى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه.. فمن الذي جاء بهم؟ انهم لم يجيئوا إليه بإرادتهم فقد كانوا -قبل أن يجيئوا- عدما لا إرادة له..لا إرادة له تقرر المجيء أو عدم المجيء فإرادة أخرى -إذن- غير إرادتهم، هي التي جاءت بهم إلى هنا.. إرادة أخرى - غير إرادتهم - هي التي قررت أن تخلقهم إرادة أخرى -غير إرادتهم- هي التي رسمت لهم الطريق، وهي التي اختارت لهم خط الحياة.. إرادة أخرى -غير إرادتهم- هي التي منحتهم وجودهم ومنحتهم خصائص وجودهم، ومنحتهم استعداداتهم ومواهبهم، ومنحتهم القدرة على التعامل مع هذا الكون الذي جيء بهم إليه من حيث لا يشعرون! وعلى غير استعداد، إلا الاستعداد الذي منحتهم إياه تلك الإرادة التي تفعل ما تريد.

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة البديهية التي يغفلون عنها لتابوا إلى الرشد من أول الطريق.

إن هذه الإرادة التي جاءت بهم إلى هذا العالم، وخطت لهم طريق الحياة فيه، ومنحتهم القدرة على التعامل معه، لهي وحدها التي تملك لهم كل شيء، وهي وحدها التي تعرف عنهم كل شيء، وهي وحدها التي تدبر أمرهم خير تدبير وانها لهي وحدها صاحبة الحق في أن ترسم لهم منبع حياتهم، وان تشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم، وان تضع لهم قيمهم وموازينهم وهي وحدها التي يرجعون إليها وإلى منهجها وشريعتها وإلى قيمها وموازينها عند الاختلاف في شأن من هذه الشؤون، فيرجعون إلى النهج الواحد الذي اراده الله رب العالمين.

2 - كما انها توحي بان هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة، تتصل في رحم واحدة، وتلتقي في شيجة واحدة، وتنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد:

(يايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)..

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة، لتضاءلت في حسهم كل الفروق الطارئة، التي نشات في حياتهم متاخرة، ففرقت بين أبناء «النفس» الواحدة، ومزقت وشائج الرحم الواحدة وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز ان تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية، وصلة النفس وحقها في المودة، وصلة الربوبية وحقها في التقوى.

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا باستبعاد الصراع العنصري، الذي ذاقت منه البشرية ما ذاقت، ولاتزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة، في الجاهلية الحديثة، التي تفرق بين الالوان، وتفرق بين العناصر، وتقيم كيانها على اساس هذه التفرقة، وتذكر النسبة إلى الجنس والقوم، وتنسى النسبة إلى الإنسانية الواحدة والربوبية الواحدة.

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا كذلك باستبعاد الإستبعاد الطبقي السائد في وثنية الهند والصراع الطبقي، الذي تسيل فيه الدماء انهارا، في الدول الشيوعية، والذي لاتزال الجاهلية الحديثة تعتبره قاعدة فلسفتها المذهبية، ونقطة انطلاقها إلى تحطيم الطبقات كلها، لتسويد طبقة واحدة، تاسية النفس الواحدة التي انبثق منها الجميع، والربوبية الواحدة التي يرجع إليها الجميع!

3 - والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الإشارة إلى انه من النفس الواحدة (خلق منها زوجها).. كانت كفيلة - لو ادركتها البشرية - ان توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة، التي تردت فيها، وهي تتصور في المراة شتى التصورات السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء.. وهي من النفس الأولى فطرة وطبعا، خلقها الله لتكون لها زوجا، وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء، فلا فارق في الأصل والفطرة، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة..

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلا. جردت المراة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها.

> ■ الآيات تؤكد عدم وجود فارق بين الرجال والنساء في الأصل والفطرة وإنما في الاستعداد والوظيفة
> ■ الأسرة قاعدة الحياة البشرية ويقوم عليها نظام المجتمع الإنساني بعد بنائه على أساس العقيدة

فترة من الزمان، تحت تاثير تصور سخيف لا أصل له. فلما أن اراد معالجة هذا الخطا الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى، واطلقت للمراة العنان، ونسيت انها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنهما ليسا فردين متماثلين، إنما هما زوجان متكاملان.

والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد..

4 - كذلك توحي الآية بان قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة فقد شاء الله ان تبدأ هذه النبتة في الأرض باسرة واحدة فخلق ابتداء نفسا واحدة، وخلق منها زوجها فكانت أسرة من زوجين (وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)..ولو شاء الله الخلق - في أول النشاة - رجالا كثيرا ونساء، وزوجهم، فكانوا أسرا شتى من أول الطريق لا رحم بينها من مبدأ الأمر ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد وهي الوشيجة الأولى ولكنه -سبحانه- شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها، أن يضاعف الوشائج فيبدأ بها من وشيجة الربوبية -وهي أصل وأول الوشائج -ثم يثني بوشيجة الرحم، فتقوم الأسرة الأولى من ذكر وانثى- هما من نفس واحدة وطبيعة واحدة وفطرة واحدة- ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالا كثيرا ونساء، كلهم يرجعون ابتداء إلى وشيجة الربوبية، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني بعد قيامه على أساس العقيدة.

ومن ثم هذه الرعاية للاسرة في النظام الإسلامي، وهذه العناية بتوثيق عراها، وتثبيت بنيانها، وحمايتها من جميع المؤثرات التي توهن هذا البناء - وفي أول هذه المؤثرات مجانبة الفطرة، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المراة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض، وتكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وانثى.

وفي هذه السورة وفي غيرها من السور حشد من مظاهر تلك العناية بالأسرة في النظام الإسلامي.. وما كان يمكن ان يقوم للأسرة بناء قوي، والمراة تلقى تلك المعاملة الجائرة، وتلك النظرة الهابطة التي تلقاها في الجاهلية - كل جاهلية - ومن ثم كانت عناية الإسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ورفع هذه النظرة الهابطة.

5 - وأخيرا النظرة إلى التنوع في خصائص الأفراد واستعداداتهم - بعد بثهم من نفس واحدة وأسرة واحدة - على هذا المدى الواسع، الذي لا يتماثل فيه فردان قط تمام التماثل، على توالي العصور، وفيما لا يحصى عدده من الأفراد في جميع الأجيال.. التنوع في الأشكال والسمات والملامح، والتنوع في الطباع والأمزجة والأخلاق والمشاعر. والتنوع في الاستعدادات والاهتمامات والوظائف.. إن النظرة إلى هذا التنوع المنبثق من ذلك التجمع تظهر القدرة المبدعة على غير مثال، المدبرة عن علم وحكمة، وتطلق القلب والعين يجولان في ذلك المتحف الحي العجيب، يتمليان ذلك الحشد من النماذج التي لا تنفد، والتي دائما تتجدد، والتي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يجرؤ أحد على نسبتها لغير الله. فالإرادة التي لا حد لما تريد، والتي تفعل ما تريد، هي وحدها التي تملك هذا التنويع الذي لا ينتهي، من ذلك الأصل الواحد الفريد!

والتامل في «الناس» على هذا النحو كفيل بأن يمنح القلب زادا من الأنس والمتاع، فوق زاد الإيمان والتقوى.. وهو كسب فوق كسب، وارتفاع بعد ارتفاع!

وفي ختام آية الافتتاح التي توحي بكل هذه الحشود من الخواطر، يرد «الناس» إلى تقوى الله، الذي يسال بعضهم بعضا به، وإلى تقوى الأرحام التي يرجعون إليها جميعا:

(واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)..

واتقوا الله الذي تتعاهدون باسمه، وتتعاقدون باسمه، ويسال بعضكم بعضا الوفاء باسمه، ويحلف بعضكم لبعض باسمه..اتقوه فيما بينكم من الوشائج والصلات والمعاملات.

وتقوى الله مفهومة ومعهودة لتكرارها في القرآن أما تقوى الأرحام، فهي تعبير عجيب، يلقي ظلاله الشعورية في النفس، ثم لا يكاد الإنسان يجد ما يشرح به تلك الظلال ! اتقوا الأرحام أرهفوا مشاعركم للاحساس بوشائجها والإحساس بحقها وتوقي هضمها وظلمها، والتحرج من خدشها ومسها.. توقوا أن تؤذوها، وأن تجرحوها، وأن تغضبوها..أرهفوا حساسيتكم بها، وتوقيركم لها، وحنينكم إلى نداها وظلها.

كثرة الداخلين في الإسلام والفرار بالدين خشية الافتتان أبرز أسبابها

الهجرة إلى أرض الحبشة

■ قاعدة جديدة تحمي العقيدة وتكفل لها الحرية ويتاح فيها التخلص من التجميد
■ الخطة الأمنية للرسول استهدفت الحفاظ على الصفوة المؤمنة حتى يشتد عود الإسلام وتهدأ العاصفة

اشتد البلاء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الكفار يحبسونهم ويعذبونهم، بالضرب والجوع والعطش، ورمضاء مكة والنار، ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه وعصمه الله منهم، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية لمكانه من الله، ومن عمه ابي طالب، وانه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل لكم فرجا مما انتم فيه». فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

وقد ذكر الباحثون أسبابا عديدة في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة منها ما ذكرت، ومنها:

ظهور الإيمان: حيث كثر الداخلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدث الناس به، قال الزهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلما كثر المسلمون، وظهر الإيمان فتحدث به، ثار المشركون من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم يعذبونهم ويسجنونهم وارادوا فتنتهم عن دينهم فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للذين آمنوا به: «تفرقوا في الأرض» قالوا: فاين نذهب يا رسول الله، قال: «هاهنا» وأشار إلى أرض الحبشة.

ومنها الفرار بالدين: كان الفرار بالدين خشية الافتتان فيه سببًا مهمًا من أسباب هجرتهم للحبشة قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم».

ومنها: نشر الدعوة خارج مكة: قال سيد قطب: «ومن ثم كان يبحث الرسول صلى الله عليه وسلم عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل، القول بانهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بانفسهم لا يستند إلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس وجاهة وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم في بيئة قبلية ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين..».

ووافق الغضبان ما ذهب إليه سيد قطب: «وهذه اللفتة العظيمة من (سيد) رحمه الله لها في السيرة ما يعضدها ويساندها، وأهم ما يؤكدها في رأيي هو الوضع العام الذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى مضت هجرة يثرب، وبدر وأحد والخندق والحديبية، لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات، وكان آخرها هذا الهجوم والاجتياح في الخندق، وحين اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة آمنة للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين، عندئذ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية، التي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم لو سقطت يثرب في يد العدو.

ويميل الأستاذ دروزة إلى أن فتح مجال للدعوة في الحبشة كان سببًا من أسباب هجرة الحبشة حيث يقول: «بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلا بهذا الأمل» وذهب إلى هذا القول د.سليمان بن حمد العودة؛ ومما يدعم الرأي القائل بكون الدعوة للدين الجديد في أرض الحبشة سببًا وهدفًا من أسباب الهجرة، إسلام النجاشي، وإسلام آخرين من أهل الحبشة، وأمر آخر، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خيبر بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه، وفي صحيح البخاري: فقال جعفر: للأشعريين - حين وافقوه بالحبشة: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا هنا، وأمرنا بالإقامة فاقيموا معنا».

حسب دراسة أعدتها مؤسسة الأبحاث البريطانية «فيث ماترز»

كلما كثر الهجوم على الإسلام .. زاد عدد معتنقيه

أظهرت إحصائيات جديدة أن أعداد البريطانيين الذين اعتنقوا الإسلام في العقد الأخير (2001-2010) قد تضاعفت تقريبا مقارنة ببداية العقد المنصرم، أي عام 2001، ما يؤكد مقولة انتشرت منذ هجمات سبتمبر 2001 على مستوى العالم مفادها أنه كلما زاد الهجوم على الإسلام كلما زاد عدد معتنقيه!

فقد أظهرت دراسة أعدتها مؤسسة أبحاث بريطانية تدعى «فيث ماترز» أن عدد الذين تحولوا إلى الإسلام في بريطانيا في العشر سنوات الأخيرة، أي منذ هجمات سبتمبر تقريبا، تجاوز حاليا أكثر من 100 الف شخص. وكانت دراسة أجريت في بداية العقد المنصرم قدرت عدد المسلمين الجدد بأكثر من 60 الف شخص في بريطانيا، ما يعني أن العدد تضاعف تقريبا.

وأشارت صحيفة «الإندبندنت» البريطانية التي نشرت إحصائيات الدراسة الثلاثاء 4-1-2011 إلى أن المسلمين في بريطانيا «واجهوا انتقادات أكثر من اتباع أي عقيدة أخرى خلال السنوات الأخيرة إلا أن هذه الصورة السلبية عن الإسلام لم تمنع آلاف البريطانيين من اعتناق الدين الحنيف».

ونقلت الصحيفة عن فايز المقول، مدير مؤسسة (فيث ماترز) قوله: «إن الوصول إلى تقديرات موثوقة لعدد المسلمين الجدد هو عملية صعبة جدا»، مشيرا إلى أن النتيجة التي توصلت إليها الدراسة في أفضل ما يمكن التوصل إليه باستخدام أرقام الإحصاء السكاني وبيانات السلطات المحلية ومعلومات تم استقراؤها من المساجد في لندن».

شهادات

ونقلت الصحيفة شهادات لبريطانيين اعتنقوا الإسلام ووصفوا تجربتهم في اعتناق الإسلام، والأسباب التي دفعتهم لذلك، مشيرة إلى أن الغالبية منهم اعتنقوا الإسلام تأثرا بزملاء الدراسة المسلمين، ومنهم من اكتشف الإسلام بعد زيارته لأحد البلاد الإسلامية.

وتقول هانا تاجيما (23 عاما) مصممة أزياء: «عندما دخلت الجامعة كونت صداقات مع عدد قليل من المسلمات وكنت أشعر بالفضول حيال قلة رغبتهن في الذهاب إلى النوادي والاختلاط مع الشباب، وفي تلك الأثناء كنت قد بدأت دراسة الفلسفة، وحياتي أصبحت مشوشة نوعا ما، ولكني عندما بدأت أقرأ عن الدين الإسلامي وجدت نفسي متوافقة مع الأفكار الإسلامية وبعدها أسلمت».

من جانبها، تروي دنيس هورسلي (26 عاما) قصة إسلامها قائلة: «تعرفت على الإسلام عن طريق صديقي المسلم لكنه لم يكن السبب في إسلامي، فأنا التي أردت اكتشاف الإسلام بنفسي، لقد نشأت في أسرة مسيحية وبدا لي الإسلام كامتداد طبيعي للدين المسيحي».